صفات عباد الرحمن

٩ ــ التوبة النصوح

● الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

لا زلنا مع (عباد الرحمن)، لا زلنا في رحاب القرآن، لا زلنا مع تلك الصفوة المختارة من عباد الله، الذين شرّفهم الله تعالى بالإضافة إلى نفسه، والعبوديّة له: عباد الرحمن.

وصفهم الله بخير الأوصاف، في حالهم مع أنفسهم ومع الناس، في ليلهم ونهارهم، معه سبحانه ومع خلقه.

وصفهم بعمل الخيرات واجتناب السيئات، فإذا كان غيرهم يرتكب الموبقات: يدعون مع الله إلهاً آخر، أو يقتلون النفس التي حرّم الله بغير حق، أو يتورّطون في الزنى، فإنّهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، ومن فعل شيئاً من هذه الكبائر يلق أثاماً: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ [جزاء ونكالاً] يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

هذا هو الآثام والنكال الذي ينتظره، عذاب مضاعف يُكرّر عليه ويُغلّظ، وعذاب الآخرة أشدّ وأنكى وأخزى من عذاب الدنيا، إنّه ليس عذاب يوم ولا يومين، ولا شهر ولا شهرين، ولا سنة ولا سنتين، إنّه الخلود: «ويخلد فيه مهاناً».

وهو مع العذاب المادّيّ هناك إهانة نفسيّة معنويّة، إنّه يخلد في هذا العذاب

حقيراً مهاناً ذليلاً، لا وزن له ولا قيمة له، مهما كان مركزه في الدنيا، ومهما كانت مكانته عند الناس، فإنّه عند الله مُهانٌ ذليل: «ويخلد فيه مهاناً».

هذا شأن من يرتكبون تلك الموبقات، ويقترفون تلك المنكرات.

ولكن هل سُدّ الباب عليهم؟ هل قُطّعت دونهم الأسباب، وغلّقت في وجوههم الأبواب، فلا رحمة ينتظرونها ولا عفو يرتقبونه؟ لا، هناك استثنى الله عزّ وجلّ فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧٠ ـ ٧١].

هكذا فتح الله باب التوبة على مصراعيه، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده.

عرف سبحانه ضعفهم، عرف تسلّط الغرائز عليهم، عرف وسوسة الشيطان لهم، عرف أنّ الإنسان خُلق ضعيفاً، فكثيراً ما يُغرى بالشرور، وكثيراً ما يتورّط في الآثام، وكثيراً ما تزلّ أقدامه، فيطيع الشيطان، ويسير في ركابه، عرف الله ذلك من عباده ففتح لهم باب التوبة.

وهو سبحانه هو الذي خلقهم هكذا، لأنّه سبحانه يريد أن يتوب على عباده، فاسمه (التواب)، وهو: ﴿... يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، واسمه (الغفّار) فمن شأنه أن يغفر، واسمه (العفو) فمن شأنه أن يعفو.

ولهذا لم يخلق الله هذا النوع من خلقه ملائكة مطهرين، وإنّما خلقهم بشراً لهم دوافعهم وشهواتهم، وغضبهم وغرائزهم، حتى يُذنبوا فيستغفروا، فيغفر الله تعالى لهم، وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[1].

إنّه (الغفّار)، إنّه (العفوّ)، إنّه (الرحيم)، إنّه (التواب)، فلا يعظم عليه

---

(١) رواه مسلم وغيره، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٢ ـ ٨٢٣ الحديث ١٩٣٤).

ذنب، مهما عظم ذنب، فإنّ مغفرة الله تعالى أعظم منه، ولهذا فُتح باب التوبة.

التوبة تجبّ الذنوب كلّها، تغسل الإنسان من ذنبه، وتذهب به كما يذهب الماء بالوسخ، من تاب من الشرك قبل الله توبته: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. فالإسلام يجبّ ما قبله، والتوبة تجبّ ما قبلها.

اختلف بعض الصحابة في توبة القاتل، لأنّ هناك حقوقاً ثلاثة: حقّ يتعلّق بالمقتول، وحقّ يتعلّق بورثته وأولياءه دمه، وحقّ يتعلّق بالله.

قالوا: إذا تاب القاتل، وعفا الله تعالى عنه وأسقط حقّه، وعفا الورثة عنه وأسقطوا حقوقهم بالصلح أو بالدية، فقد بقي حقّ المقتول.

ولكن الصحيح أنّه إذا تاب توبة نصوحاً، وعفا عنه أولياء الدم، فإنّ الله أهلٌ لأن يُرضي عنه المقتول يوم القيامة.

فالتوبة تشمل كلّ الذنوب، وهنا بعد أن ذكر الله الشرك، والقتل، والزنى، قال: «إلاّ من تاب..» فهو يشمل الذنوب الثلاثة.

ولكن: أيّ توبة؟ ما التوبة المقبولة؟

إنّها التوبة (النّصوح)، والنّصح معناه: الخلوص من الغش، أي أنّها ليست توبة زائفة، ليست توبة مدخولة مغشوشة، ليست كتوبة الكذّابين الذين يتوبون بألسنتهم وقلوبهم مصرّةٌ على المعصية، لا.

إنّ للتوبة مقومات وأركاناً لا بدّ أن تتوافر لها:

أوّل أركانها: النّدم، كما سئل أنسٌ وغيره من أصحاب النبي ﷺ: أقال النبي ﷺ: «**الندم توبة**»[1]؟ قال: نعم.

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحّحه الشيخ شاكر، كما رواه ابن ماجه، والحاكم وصحّحه، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٢، الحديث ١٩٣٢)..

وهذا يعني أنّه أعظم أركان التوبة، كما قال: «**الحجّ عرفة**»[1] أي أعظم أركان الحج: عرفة.

النّدم: الأسى.. الحزن.. الحسرة التي تأكل القلب، يحترق الإنسان داخلياً إذا تذكر معصيته لله، لا يهنأ له بال، ولا يسعد له حال، ولا يطيب له نوم، لأنّ ذنبه ـ كلّما تذكّره ـ ينغّص عليه نهاره ويؤرّق عليه ليله.

إنّه شعور بالتقصير أمام الله عزّ وجلّ، يستجمع الإنسان في ذاكرته إساءته إلى الله، وإحسان الله تعالى إليه، يتذكر نعم الله تعالى عليه، ويتذكر معصيته لله عزّ وجلّ، كما جاء في أحد الأحاديث القدسيّة: «إنّي والجنّ والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري»[2]، خيري إلى العباد نازل، وشرّهم إليّ صاعد، أتحببّ إليهم بنعمي وأنا الغنيّ عنهم، فيتبغضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيء إليّ.

من يريد التوبة يستجمع هذا، يستحضر آلاء الله ونعمه عليه، ويستحضر ذنوبه ومعاصيه مع الله عزّ وجلّ، فينشأ من ذلك حالة (النّدم)، حالة الأسى والأسف، التي يذوب بها القلب كما يذوب الملح في الماء.

وصف الله لنا نفسيّة التائبين في سورة (التوبة) حين قال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: ١١٨].

---

(١) رواه أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم، والدارقطني، والبيهقي، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمي (المقاصد الحسنة للسخاوي برقم ٣٩٤).

(٢) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول. والبيهقي في شعب الإيمان وكذا الحاكم عن أبي الدرداء، كما في (فيض القدير: ٥٤/٤٦٩ برقم ٦٠٠٨) و(كنز العمال: ١٦/٣ برقم ٤٣٦٧٤)، وضعفه السيوطي في (الجامع الصغير) وكذلك الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤٠٥٢)، الزيادة التي أوردها الشيخ: «خيري إلى العباد نازل...» لم أعثر عليها.

انظروا: «ضاقت عليهم الأرض بما رحبت» الدنيا على سعتها ضاقت عليهم، وأنفسهم ضاقت عليهم، «وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه» هذا هو شعور التائب، هذا معنى (النّدم)، وهذا أوّل عناصر التوبة ومقوّماتها، إنّ النادم هنا يغسل ذنوبه بدموعه.

الركن الثاني للتوبة: العزم المصمّم ألاّ يعود إلى الذنب: لا توبة إلاّ بهذا العزم، أمّا إذا كان يتوب وهو بين بين، وهو يحنّ إلى المعصية، ولا يزال في قلبه تعلقّ بها، ولا زال عقله يفكّر فيها، فهذه ليست توبة.

لا بدّ أن يكون ساعة التوبة قاطع العزم كحدّ السيف، مصرًّا على ألاّ يعود إليها، كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه.

قد يضعف بعد ذلك، قد تخونه إرادته، قد يغلبه هواه، قد يصرعه شيطانه ويهزمه، فالمعركة بين الخير والشرّ مستمرة، ولكن المهمّ ساعة التوبة يكون عازماً عزماً أكيداً ألاّ يعود إلى الذنب.

الركن الثالث: أن يُقلع بالفعل عن ذنبه:

التوبة رجوع عن المعصية إلى الطاعة، وعن السيئات إلى الحسنات، رجوع من طريق الشيطان إلى طريق الله، فلا بدّ أنه يرجع.. أن يغيّر طريقه.. أن يغيّر مجراه.. أن يغيّر صحبته، يستبدل مكاناً بمكان، وأناساً بأناس، وأصحاباً بأصحاب[1] «.. وأتبع السيئة الحسنة تمحها..»[2].

---

(١) كما أوصى الرجل العالم ذلك الرجل الذي جاءه يسأله عن التوبة، وقد قتل مائة نفس، فقال له: انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنّ بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوء (انظر حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه، وقد أورده النووي في باب التوبة من كتابه الشهير: رياض الصالحين).

(٢) هو جزء من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه ـ الذي رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو من أحاديث=

إذا استجمعت هذه التوبة شرائطها، فلا بدّ أن تُقبل حسب سنن الله سبحانه وتعالى، لأنّه وعد بقبول التوبة: ﴿.. ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

سئلت رابعة العدوية: أإذا تُبتُ تاب الله عليَّ؟ فقالت: يا أحمق، بل إذا تاب الله عليك تبت، أما قرأت قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي إنّه إذا وفقك للتوبة فهذا دليلٌ على أنّه قبلك، ما دام قد بعثك وحفزك على أن تتوب، فهذا دليل القبول من أوّل الأمر.

التوبة مطلوبة من كلّ مسلم، يقول القرآن: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]، ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[1] [التحريم: ٨]، فالمؤمنون مخاطبون ومأمورون جميعاً بالتوبة إلى الله تعالى.

كلّ إنسان مطالب أن يتوب، مَنْ مِنَ الناس يرى نفسه معصوماً من الذنوب؟ كلّنا مقصّر فِي حق الله، كلّنا مفرّط في حقوق العباد، ولذلك ينبغي أن نكون دائماً توابين.

النبي ﷺ مع حسن صلته بالله، ومع إنّه كان لا يغفل عن ربه طرفة عين، وكانت تنام عيناه وقلبه لا ينام، وكان مع الله في غدواته ورَوْحاته، وحركاته وسكناته كلّها، ومع هذا كان يقول: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنّي**

= الأربعين النووية، ونصّه كاملاً: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧١٢، الحديث ١٥٩٤).

(١) وتتمتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

أتوب في اليوم مائة مرّة»[1].

التوبة مطلوبة من عباد الرحمن، وخصوصاً إذا ارتكبوا موبقة من الموبقات، إذا ارتكبوا كبيرة من الكبائر، كهذه التي ذكرها القرآن[2]، أو أيّ كبيرة أخرى.

الصغائر أمرها هيّن، تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن الخطورة كلّ الخطورة في الكبائر، فهذه لا يكفّرها إلاّ التوبة والتوبة النصوح، فلا بدّ منها. ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [مريم: ٦٠].

لماذا عقّب التوبة بالإيمان؟ لأنّ الكبائر تخدش الإيمان وتجرحه، بل تصيبه في الصميم، وقد ذكرنا الحديث الصحيح[3]: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

الإيمان إذن يُصاب بهذه الكبائر والموبقات.

لهذا كان على التائب أن يعمل على ترميمه بعد الإصابة، وعلى تجديده بعد أن يخلق بهذه المعاصي الكبيرة، ومن هنا كان معنى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ..﴾ جدَّد إيمانه بهذه التوبة النصوح.

ثم لا بد ـ بعد التوبة والإيمان ـ من عمل صالح: إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً.. أي لا بدّ أن يبيض صفحته بالطاعات بعد أن سوَّدها بالمعاصي، لا بدّ أن يعمل الصالحات ويكثر من الحسنات، ويحاول أن يعوِّض ما

---

(١) رواه مسلم عن الأغرّ بن يسار المزنيّ رضي الله عنه (رياض الصالحين للنووي: باب التوبة).

(٢) أي في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون...﴾ (٦٨).

(٣) الذي رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ (المنتقى من كتاب الترغيب، والترهيب: ٢/ ٦٥١ برقم ١٣٩٩).

فات، لا بدّ من هذا، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

إنّه كان يعمل السّيّئات فعليه أن يعمل مقابلها حسنات، لقد غيرّ طريقه فلا يجوز أن يبقى فارغاً، والنفس لا تبقى فارغة، من لم يشغل نفسه بالحق شغلته نفسه بالباطل، من لم يشغل نفسه بالطاعة شغلته نفسه بالمعصية، المرء لا يبقى في فراغ، لا بدّ من عمل.

فإذا كان قد ولّى زمن السيئات فليستقبل زمن الصالحات، وليعمل عملاً صالحاً.

وأبواب العمل الصالح كثيرة ومفتوحة، مع الله ومع الناس، في الليل والنهار: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] لا يضيع عند الله شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

عتلى التائب أن يملأ صحائفه حسنات ما استطاع، ويحاول ـ بقدر الإمكان ـ أن يجعل في مقابل السّيّئة حسنة من جنسها: إذا كان يغتاب المسلمين فليجعل من حسناته أن يدعو للمسلمين وأن يستغفر لهم، إذا كان من سيئاته من قبل أنه يؤذي الناس بيده أو بلسانه، فليكن من حسناته الجديدة أن يقدّم النفع للناس. أن يُسدي الخير لهم.. أن يصنع المعروف معهم.. أن يميط الأذى من طريقهم.. أن يقدّم لهم ما استطاع من خير.

فإن عجز فليدلّ على خير: «والدال على الخير كفاعله»[1]، و«من دلّ على

---

(١) هو جزء من حديث رواه البيهقي في الشُّعب عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونصّه كاملاً: «كلّ معروف صدقة، والدالّ على الخير كفاعله، والله يحبّ إغاثة اللهفان»، وقد رمز له السيوطي بالضعف في الجامع الصغير (٢/ ٩٤). قال العلامة المناوي: وفيه طلحة بن عمرو أورده الذهبي في الضعفاء وقال: قال أحمد متروك، وقال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب=

خير فله مثل أجر فاعله»[1].

فإن عجز فلينو الخير، ربّما كانت نية المرء خيراً من عمله.

هذا هو المطلوب من التائب: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]، ما معنى هذه الكلمة القرآنية: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾؟.

للمفسّرين فيها وجهان:

الوجه الأوّل: إنّ حياتهم قد تغيّرت، وأعمالهم قد تبدلت، فهم قد تحوّلوا من حياة المعصية إلى حياة الطاعة، من الشرك إلى التوحيد، من الكفر إلى الإسلام، من الرياء إلى الإخلاص، من إيذاء الناس إلى نفع الناس، من إضاعة الصلوات واتباع الشهوات، إلى المحافظة على الصلوات وإلى اجتناب الشهوات، من كذا إلى كذا.

تبدّلت سيئاتهم حسنات، لأنّ حياتهم الجديدة قد قلبت الموازين، وغيّرت الطريق، اتجه الريح اتجاهاً جديداً.

هذا تأويل.

والوجه الثاني: إنّ نفس السّيئات تنقلب بالتوبة النصوح إلى حسنات، وذلك أنّ التائب الذي صدقت توبته، كلّما تذكّر ذنبه ندم وبكى واستغفر، وطلب من الله العفو، فهو دائماً يتذكّر ذنبه، ويعقبه بالاستغفار والرّجعة إلى الله، وبهذا تنقلب الذنوب نفسها إلى حسنات، وتصبح السيئات في ميزانه

= عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف (فيض القدير: ٥/(٣٣ برقم ٦٣٥٤). والحديث وإن كان ضعيفاً إلاّ أنّ معناه صحيح، ويشهد له حديث أبي مسعود التالي، الذي رواه مسلم وغيره.

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ١٢٨ برقم ٧٧).

حسنات وفي هذا ـ أيضاً ـ وردت بعض الأحاديث الدالّة على ذلك، ولا حرج على فضل الله عزّ وجلّ.

إنّ الله لا يريد من عباده أن يبعدوا عنه، ولكن يريدهم أن يقتربوا منه، ويقول لهم ـ كما في الحديث القدسي:

«.. وإن تقرّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

من أقبل على الله تائباً تلقّاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب، كما أمر نبيّه ﷺ أن يقول: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

ما أرقّها.. ما أنداها.. ما ألطفها من عبارة.

إنّهم العصاة، إنّهم الظالمون المسرفون على أنفسهم، لم يحرمهم شرف العبوديّة له، أبقى عبوديّتهم له، وناداهم بهذا النّداء المؤنس المحبّب: «.. يا عبادي [أنتم عبادي وإن أخطأتم وعصيتم] الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنّه هو الغفور الرحيم».

هذا نداء عامٌّ خالدٌ إلى يوم القيامة، لكلّ العصاة والمسرفين على أنفسهم، كما جاء في الحديث أيضاً: «قال الله: يا ابن آدم، إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنَان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنّك لو أتيتني بقراب

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأوّله: «يقول الله: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم..»، ورواه أحمد بنحوه بإسناد صحيح، وزاد في آخره قال قتادة: «والله أسرع بالمغفرة» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٣٧ برقم ٨٢١).

الأرض خطايا ثمّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»[1].

المهم أن تستغفر الله، وترجع إليه وتنيب إليه، وتقف على بابه، ولن يردّك، فباب الله ليس عليه حاجب يصدّ الناس عنه، ولا بواب، ولا ناطور، ولا أحد، الباب مفتوح، كلّما قلت: يا ربّ، قال الله لك: لبّيك عبدي وسعديك.

المهمّ أن تسارع إلى التوبة.. أن تبادر ولا تسوّف، فأكثر أهل النار: المسوّفون، الذين يقولون: سوف نتوب، سوف نتدارك، و(سوف) جند من جنود إبليس.

وما يدريك أنك ستعيش إلى غد أو بعد غد؟ ما يدريك ـ وأنت في ريعان شبابك ـ أنك ستبقى إلى سنّ الكهولة؟ وما يدريك وأنت في سنّ الكهولة أن تبقى إلى سنّ الشيخوخة؟ وما يدريك أنّك إذا بقيت ستجد العزم على التوبة؟ ربّما كان الإصرار على المعصية يغلق قلبك بالقساوة، فلا تجد رغبة في التوبة، لأنه الإنسان كلّما أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب صقل القلب منها، وأصبح أبيض صافياً، فإذا لم يتب وفعل أخرى أصبحت نكتة سوداء بجانب نكتة سوداء... حتى يسودّ القلب كلّه والعياذ بالله[2]، فذلك الران الذي

---

(١) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٩٠٤، ٢١١١)، وهو الحديث الثاني والأربعون من أحاديث الأربعين النووية، وقال ابن رجب في شرحه (جامع العلوم والحكم): وإسناده لا بأس به، و«العنان» هو السحاب، و«قراب الأرض» أي ما يقارب ملأها.

(٢) يشهد لذلك حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ونصه: «إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر صُقلت، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٧٠ الحديث ٩٠٨).

ذكره الله تعالى في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وهنا يُخشى أن يسودّ القلب ويُظلم، . فلا يجد إرادة للتوبة، ولا يجد رغبة فيها.

هذا هو خطر التسويف.

ثمّ إنّ الموت يأتي بغتة، وخاصّة في عصرنا، ما أكثر الذين يموتون في الحوادث، وما أكثر الذين يموتون بالسكتة أو بالذبحة، وما أكثر الذين يصبحون فلا يمسون أو يمسون فلا يصبحون: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء..»[1].

تزوّد من التقوى فإنّك لا تدري إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر

التسويف هو الخطر، تُب من قريب: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿١٧﴾﴾[2] [النساء: ١٧].

صحيح إنّ التوبة تُقبل في أيّ حال، إذ تُبت مختاراً قبل أن تبلغ الروح الحلقوم: «إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[3]، ولكن من يضمن لك أن

---

(١) هو من كلام عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقد رواه البخاري وغيره، وتتمته: «وخُذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك». انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٦٦ الحديث ٢٠٨٠).

(٢) وقال الله عقبها: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴿١٨﴾﴾ [١٨].

(٣) رواه الترمذي عن ابن عمر وقال: حديث حسن، ورواه ابن ماجه، والحاكم وصحّحه، ووافقه الذهبي، وأورده الهيثمي في (المجمع) جزءاً من حديث وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير (عبد الرحمن بن البيلماني) وهو ثقة. ومعنى «يغرغر»: أي ما لم تبلغ روحه حلقومه، فيكون بمنزلة الشيء الذي يُتغرغر به (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢١ ـ ٨٢٢ الحديث ١٩٣٠).

تتوب فيما بعد؟.

حاول أن تُبادر بالتوبة ولا تسوّف، ولا تؤخّر، ولا تستصغر ذنوبك، فإنّ النبي ﷺ قال: «إيّاكم ومحقّرات الذنوب، فإنّهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»(١).

يا أيّها المؤمنون: توبوا إلى الله جميعاً «كلّ ابن آدم خطاء، وخير الخطّائين التوّابون»(٢).

آدم نفسه أخطأ، وأكل من الشجرة، ولكنّه محا هذه المخالفة بالتوبة، فغُسل منها تماماً، خلافاً لما يقوله دُعاةُ النصرانيّة، الله تعالى يقول: ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢].

آدم أكل من الشجرة، ثمّ دعا هو وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

وإذا كان الأب قد أذنب وأخطأ ﴿.. فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٣) [طه: ١١٥] كما قال القرآن، فلا غرو أن يخطىء أبناؤه، وأن يقعوا في المعصية، ولكن الذي أعطاه الله لآدم أعطاه لذرّيته: (التوبة).

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود، وكذا الطبراني والبيهقي، كلهم من رواية عمران القطان، وهو ممن اختلف في توثيقه وتضعيفه، وممن وثّقه ومشّاه أحمد، واحتجّ به ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم، وبقيّة رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح، كما قال المنذري (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٧١ برقم ١٤٦٤).

(٢) من حديث أنس رضي الله عنه، رواه الترمذي وقال: حديث غريب، ورواه ابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وانتصر له ابن القطان، وقال الذهبي: على لين، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٠ الحديث ١٩٢٧).

(٣) وأوّلها: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل..﴾.

يُروى: «إنّ الله عزّ وجلّ لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزّتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزّتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه[1].

نستطيع أن نغلب الشيطان بالتوبة إذا صدقت.. إذا نصحت، فإذا تُبنا إلى الله، تقبلّ الله تعالى منّا.

ربّما كان هناك بعض التائبين أفضل ممّن نشأوا في الطاعة، لأنّهم كلّما تذكّروا ذنوبهم بكوا على أنفسهم بكاءً مرًا، فعاشوا بين الرجاء والخوف: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، يرجو عفو الله ويخشى عقابه، فهو بهذه النفسيّة ربّما كان أفضل من كثير ممنّ نشأوا في الطاعة.

إذا تاب الإنسان توبة نصوحاً محا الله عنه ما مضى، وغفر له ما قد سلف: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2].

هذه حقيقة، وقد جاء في الحديث: «كان الكِفْلُ من بني إسرائيل، وكان لا يَتَوَرَّعُ من ذنبٍ عَمِلَهُ، فَأَتَتْهُ امرأةٌ، فَأَعْطَاهَا ستينَ ديناراً على أَنْ يَطَأَهَا، فلمّا أرادها على نفسها ارتدعت، وَبَكَتْ، فقال: ما يُبْكِيكِ؟ قالت: لأنّ هذا عملٌ ما عَمِلْتُهُ، وما حملني عليه إلاّ الحَاجَةُ، فقال: تَفْعَلِينَ أَنْتِ هذا من مخافة الله؟ فأنا أحرى، اذهبي فلك ما أعطيتك، ووالله لا أَعْصِيهِ بَعْدَهَا أَبَداً، فَمَاتَ مِنْ

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء بصيغة: يُروى، كذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ، والحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصحّحه من حديث أبي سعيد، انظر: الإحياء مع تخريج أحاديث للعراقي (٤/ ١٤) ط. دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) رواه ابن ماجه، والطبراني، عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورواة الطبراني رواة الصحيح، وحسّنه ابن حجر، وكذلك الألباني في صحيح الجامع الصغير، ورواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس، وزاد: «والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه» قال المنذري: وقد روي بهذه الزيادة موقوفاً، ولعلّه أشبه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٢ الحديث ١٩٣١).

ليلته، فَأَصْبَحَ مَكْتُوباً على بَابِه: إِنَّ اللَّهَ قد غفرَ للكفل، فَعَجِبَ الناسُ من ذلك»[1].

الذي حدث أنّه في لحظة صلح مع الله تاب إلى الله عزّ وجلّ، فمحا الله عنه ما كان منه، أقبل على الله وندم وتاب فمات مغفوراً له.

هذا هو سرّ التوبة، إنّها إكسير الحياة، إنّها (المحّاءة) التي تمحو كلّ الذنوب إذا صحّت ونصحت وصدقت ﴿.. وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

اللهم تُب علينا توبة نصوحاً، واغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقي.

استغفروا الله إنه الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

إذا صدقت التوبة قُبلت، ويفرح الله تعالى بها فرحاً عظيماً، حتى جاء في الحديث الصحيح: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوِّيَّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتدّ عليه الحرّ والعطش ـ أو ما شاء الله تعالى ـ قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»[2].

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عمير وقال: حديث حسن، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٦٠ برقم ١٤٢٨).

(٢) رواه البخاري ومسلم عن الحارث بن سويد عن عبد الله رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٢٤، الحديث ١٩٤٠). و«الدوّيّة»: هي الفَلاَةُ القفر والمفازة.

انظروا: كيف يفرحَ الله بتوبة عبده؟!

إنّ الله يحب من عباده أن يتوبوا، ويفرح بهم، ويرحّب بهم، ويستقبلهم، فقد عادوا إليه بعد شرود.

ولكن هناك شرط مهمّ للتوبة:

التوبة إذا كانت تتعلّق بالمعاصي التي بين الإنسان وربّه، فالأمر فيها هيّن، ويقبلها الله ولا شك، ولكن المشكلة تنشأ إذا كان بينك وبين العباد حقوق، وبخاصّة الحقوق الماليّة كالديون التي للناس عليك.

إذا كنت اغتصبت منهم مالاً، أو سرقت، أو ارتشيت، أو غششتهم في تجارة، أو فعلت شيئاً من ذلك، أو أكلت وديعة أو أمانة عندك، فعليك أن تردّها، بل قال العلماء: عليك أن تردّها وتردّ ربحها.

إذا كان عندك ألف جنيه أو ألف ريال، وبقيت عندك عشر سنين وربحت منها، فالمفروض أن تردّها وتردّ ربحها إلى صاحبها، لأنّها لو كانت عنده لنمت.

جاء في الحديث الصحيح: «يُغْفَرُ للشهيدِ كُلُ ذَنْبٍ إلاّ الدَّين»[1].

الشهيد في سبيل الله تُغفر ذنوبه كلّها، صغائرها وكبائرها، إلاّ الدّين.. إلاّ حقوق العباد.

فمن تاب توبة نصوحاً: عليه أن يردّ الحقوق إلى أهلها، فإن كانوا قد ماتوا يردّها إلى ورثتهم، فإن كان الورثة قد ماتوا، ردّ إلى ورثة الورثة.

لا بدّ من الردّ أو الاستحلال، بمعنى أن يطلب من أصحاب الحقوق أن يحلّوه من تبعتها، كما جاء في الحديث الصحيح: «من كانت عنده مظلمة لأخيه

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٣٩٨، الحديث ٧٣١).

من عرض أو من شيء، فليتحلّله منه [يعني يقول له: أَحِلَّني.. سامحني] من قبل ألاّ يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه»[1].

العملة الوحيدة يوم القيامة: الحسنات والسّيّئات، لا درهم ولا دينار، ولا ريال ولا دولار، ولا شيء من هذا.

فالإنسان إمّا أن يردّ الحق إلى أهله، وإمّا أن يتحلّل ويستسمح أصحاب الحق، فإن سمحوا وإلاّ عليه أن يردّ إليهم ما استطاع إن عرفهم، وإن لم يعرفهم ـ كأن يكون ظلم أناساً كثيرين، أو ماتوا ولا ورثة لهم ـ يتصدّق عنهم، والأولى أن يجعل صدقته جارية، يضعها في مسجد، أو في مشروع خيريّ، ليظلّ أجره لهم إلى يوم القيامة، هكذا ينبغي للمسلم أن يفعل.

فإن عجز فلينو: كلّما قدر على شيء، ردّ منه ما استطاع.

فإن مات وهو عاجز، فالله أهل أن يُرضي عنه خصماءه يوم القيامة.

الأمر شديدٌ إذن، حقوق الله مبنيّة على المسامحة، وحقوق العباد مبنيّة على المشاحّة، كلّ يقول: حقّي حقّي، نفسي نفسي.

فلا بدّ من رعاية هذا الشرط لمن أراد التوبة (النّصوح).

وأولى من هذا كلّه أن يبعد الإنسان عن الحرام، ويجنّب نفسه حقوق الناس ما استطاع.

ابتعد عن أكل أموال الناس بالباطل، ابتعد عن الحرام، بل عن الشبهات «.. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في

---

(١) رواه البخاري، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦١٩ برقم ١٣٠٤).

الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه..»[1].

اللهمّ إنّا نسألك أن تغنينا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمّن سواك.

اللهم تُب علينا توبة نصوحاً، اللهم أعنّا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا. اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا، اللهم مكّن للمسلمين في ديارهم، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السّفلى.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، اللهم آمين.

وصلّ اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وقد رواه البخاريّ، ومسلم، والترمذي، وأبو داود باختصار، وابن ماجه، وهو من أحاديث الأربعين النوويّة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٥٠٦، الحديث ٩٦٦).